تأثير حديث المعراج فى الأدب العالمى

يتابع علماء الأدب المقارن الصلات القريبة والبعيدة بين الآثار الأدبية فى لغات العالم ، فيعقدون موازنات دقيقة بين ما يلمسون تشابهه من هذه الآداب ، فهم يتتبعون الأفكار والأخيلة ، ناقدين محللين ، وكثيرًا ما ينتهون إلى الحكم بالتأثير القريب أو البعيد فى أثر من الآثار الذائعة ، حين يحللون عناصره الأدبية فيجدون بينها أصولاً تمت إلى أثر أجنبى آخر ! وهذا شىء طبيعى فى دنيا القول ، لأن الأفكار الأدبية والعلمية تتناقل وترحل فى كل مكان ، والأديب أو العالم قارئ مثقف يلتقط ما يعثر عليه إن قريبًا وإن بعيدًا ، وهو لا محالة متأثر بروائع ما يقرأ ، ولا يستطيع أن يمنع عن تفكيره وخياله ما يرفدهما بالقوة والنماء ، وقد كان حديث المعراج الذى حكاه نبى الإسلام أحد هذه الآثار الأدبية الخالدة التى امتد تأثيرها إلى آداب أمم مختلفة ! والتى أحدثت دويًّا عاصفًا بين علماء النقد المقارن حين لمسوا خيوطها البارزة فى أكثر من نسيج فنى ، ولعلنا نومئ إلى ذلك ببعض التفاصيل !

إن كتب الأحاديث النبوية تروى عدة آثار خاصة بليلة المعراج ، فهناك روايات سنية عن أنس بن مالك تلقى بعضها عن أبى ذر ، وبعضها الآخر عن أبى هريرة ، وعن مالك بن صعصعة الأنصارى ! وهناك آثار شيعية عن الإمام زيد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، تلقاها عن أبيه عن جده عن على عن رسول الله ! وهناك روايات لا تصل إلى درجة ما روى عن أنس وزيد رضى الله عنهما ! بل تظهر عليها آيات الوضع وعلائم الاضطراب ، ومن كل ذلك امتد حديث المعراج امتدادًا كبيرًا ، وأحيط بأقوال ضخمة للمفسرين والمحدثين والمؤرخين ! بحيث لو جمع ما قيل بصدد ذلك لشغل كتابًا ضخمًا برأسه ! ثم جاء بعض العلماء فوصلوا الأحاديث المختلفة فى رواية واحدة ، وجعلوا منها نسقًا

متصلاً متلاحقًا ، بل إنهم تعدوا أحاديث المعراج إلى ما دار حولها من الشروح ثم انتقل هذا الحشد إلى الأجيال المتلاحقة ، فقرأه العلماء والأدباء ، وترجم إلى اللغات الأجنبية ، فأحدث دويه الرنان !

ونحن الآن .. فى مجال إبراز التأثير القوى لحديث المعراج فى الأدب العربى ، والآداب المختلفة نضع فاصلاً بين ما صحت روايته عن الرسول أو رجحت ، وبين ما ضعفت نسبته إليه لأسباب ذكرها المحدثون ! نضع هذا الفاصل لنحكم بأن ما صحت نسبته إلى الرسول كان الأساس الأول لهذه الصورة الجميلة ، عن السماء والأرض والجنة والنار ؛ إذ إن محمدًا ﷺ حكى ما شاهده من العجائب حكاية رائعة فتحت أمام الأدباء مجال التصوير الفسيح ! ومن هنا .. كان تأثيره المباشر فى كل رحلة خيالية إلى السماء ، وإلى الجنة والنار ! أما ما ضعفت نسبته إليه ، فقد ساقه الوضاعون متأثرين بحديث المعراج ناسجين على منواله ، فلولا أنهم رأوا الكوى المضيئة بأشعة من حديث محمد ما استطاعوا أن يقولوا شيئًا ! وهنا يكون الحديث الموضوع وليد تأثير من الحديث الصحيح ، فإذا استلهمه بعض الروائيين ، فإنما يردون موردًا اشتق إبداعه وإلهامه من حديث صحيح . ويمكننا إذ ذاك أن نسمى ما ساق الوضاعون من حديث المعراج أدبًا مصنوعًا استلهم البيان النبوى ، ثم نقل تأثيره إلى أدباء العالم ، وهم بإنتاجهم المتشابه يعلنون بلسان النقد أن صاحب الإبداع الأول هو نبى الإسلام لا محالة ! وغيره قد احتذاه .

وإذا كانت رواية أنس بن مالك عن المعراج تلخص حادث المعراج بما هو معروف من مجىء جبريل إلى النبى ، وتقديمه البراق ، وارتقائه إلى السموات السبع، فرؤية آدم ويحيى ، وعيسى ويوسف وإدريس ، وهارون وموسى وإبراهيم ، بعد سؤال وجواب عن القادم والإذن له بالزيارة ، ثم مشاهدة أنوار رب العزة وفرض الصلاة خمسًا بعد خمسين عقب مراجعة تنشد التخفيف .. إذا كانت رواية أنس بن مالك تقف عند ذلك فإن رواية الإمام زيد بن على وهو الفقيه المجاهد الشهيد العلم

الثقة ، تفصل الأمر بوضوح مستوعب ! وهى بعد رواية محترمة عزيت إلى إمام ورع متحرز ، وذلك نصها :

قال على بن أبى طالب : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر يومًا بغلس ، فلما قضى الصلاة التفت إلينا وقال : أفيكم من رأى الليلة شيئًا . قلنا : لا يا رسول الله ، قال : ولكنى رأيت كأن ملكين أتيانى فأخذا بضبعى ، فانطلقا بى إلى السماء ، فانطلقت فمررت على ملك وأمامه آدمى وبيد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمى، فيقع دماغه جانبًا ، وتقع الصخرة جانبًا ، قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه ، فمضيت ، فإذا أنا بملك وبين يديه آدمى وبيد الملك كلوب من حديد ، فيضعه فى شدقه الأيمن فيشقه حتى ينتهى إلى أذنه ، ثم يأخذ فى الأيسر فليتئمم الأيمن ، قلت : ما هذا . قالا لى : امضه ، فمضيت فإذا أنا بنهر من دم يفور كفوران المراجل ، وعلى حافتى النهر ملائكة بأيديهم نار ، كلما طلع طالع قذفوه بها ، فيقع فيه فيشتعل إلى أسفل ذلك النهر ، قال : قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه ، فمضيت ، فإذا بيت أسفله أضيق من أعلاه ، وفيه قوم عراه تفور من تحتهم النار فأمسكت على أنفى من نتن ما أجد من ريحهم ، قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه ، فمضيت فإذا أنا بتل أسود عليه قوم محنيون تنفخ النار فى أدبارهم ، فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم ، قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه فمضيت ، فإذا أنا بنار مطبقة موكل بها ملك لا يخرج منها شىء إلا أتبعه حتى يعيده فيها ، قلت : ما هذا ؟ قالا لى : امضه ؛ فمضيت فإذا أنا بروضة خضراء وإذا فيها رجل شيخ جميل لا أجد أجمل منه ، حوله الولدان ، وإذا أنا بشجرة ورقها كآذان الفيلة ، قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه ، فصعدت إلى ما شاء الله من تلك الشجرة ، فإذا أنا بمنازل لا منازل أحسن منها ، درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء قلت : ما هذا ؟ قالا لى : امضه ، فمضيت فإذا أنا بنهر عليه جسر من ذهب وفضة وعلى حافة النهر منازل لا منازل أحسن منها من درة وزبرجدة وياقوتة وفيه أقداح وأباريق ، قلت : ما هذا ؟ قالا لى:

انزل فنزلت فضربت بيدى إلى إناء منها ثم غرفت فشربت فإذا هو أحلى من العسل وأشد بياضًا من اللبن وألين من الزبد ، فقالا لى : أما صاحب الصخرة التى رأيت الملك يضرب هامته فيقع دماغه جانبًا وتقع الصخرة جانبًا فأولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ، ويصلون الصلوات لغير وقتها ، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما صاحب الكلوب الذى رأيت به ملكًا موكلاً بيده كلوب من حديد يشق به شدقه الأيمن حتى ينتهى إلى أذنه ثم يأخذ فى الأيسر فليلتئم الأيمن ، فأولئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة ليفرقوا ، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما البيت الذى رأيت أسفله أضيق من أعلاه وفيه قوم عراة توقد من تحتهم النار ، فأمسكت على أنفك من نتن ما تجد من ريحهم ، فأولئك الزناة وذلك نتن فروجهم فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما التل الأسود الذى رأيت عليه قومًا محنيين تنفخ النار فى أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم ، فأولئك الذين كانوا يعملون عمل لوط الفاعل والمفعول به فهم يعذبون بهذا حتى يصيروا إلى النار ، وأما النار المطبقة التى رأيت ملكًا موكلاً بها كلما خرج منها شىء أتبعه حتى يعيده فيها ، فتلك جهنم حتى يفرق بين أهل الجنة والنار ، وأما الروضة الخضراء التى رأيت فتلك جنة العامة ، وأما الشيخ الذى رأيت لا أجد أجمل منه حوله الولدان فذاك أبوك إبراهيم ، وأما الشجرة التى رأيت وطلعت إليها فيها منازل لا منازل أحسن منها درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء ، فتلك منازل أهل عليين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ، وأما هذا النهر الذى رأيت فنهرك الذى أعطاكه الله ، وهذه منازلك ومنازل أمتك ، ثم نوديت من فوقى : يا محمد ، سل تعط ، فارتعدت فرائصى ورجف فؤادى واضطرب كل عضو منى ولم أستطع أن أجيب شيئًا ، فأخذ أحد الملكين يده اليمنى فوضعها بين ثديى ، وأخذ الآخر فوضع يده بين كتفى فسكن ذلك منى ، ثم نوديت من فوقى : يا محمد ، سل تعط ،

سل تعط ، قال : قلت : اللهم ، أسألك أن تثبت شفاعتى وأن تلحق بى أهل بيتى ، وأن ألقاك لا ذنب لى »[1] .

هذه بعض المشاهد من عالم الغيب كما رواها حديث المعراج ، وكان من المنتظر أن ننقل حديث ابن عباس بدل حديث زيد بن على . حيث يتضمن كثيرًا من مشاهده ، ولكن المحدثين قد ردوه مع ما ردوا من روايات ضعيفة ذكرها الدكتور على حسن عبد القادر ص ١٢٨ من كتاب « المعراج » ، كما ذكر الدكتور بعض مصادر الروايات الصحيحة ص ١٣٧ ، فحديث المعراج إذًا كما روته الروايات الراجحة ، ولخصه حديثًا أنس وزيد ، يعتبر فتحًا مبتكرًا فى عالم البيان التصويرى ، تمخض عن الجديد الطريف ، وقد روى البخارى عن سمرة بن جندب حديثًا آخر ينحو نحو حديث زيد فى لبابه ، فيتحدث عن رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله فى شدقه ، وعن رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة فيشدخ به رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، وعن رجال ونساء عراة فى تنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد نارًا عليهم ، وعن نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل يحمل أحجارًا ، فكلما اقترب سابح النهر رجمه فيرجع ، وعن روضة خضراء ذات شجر مزهر ، وبها دار وشباب وشيوخ .. ثم فسر جبريل فى حديث البخارى جميع ما يرمز إلى ذلك بما لا يخرج عن الإجابة فى حديث زيد ، وإنما ألمعنا إلى ذلك لنزيل الشك من صدور لا تزال تقابل بعض روايات الشيعة بالصدود. وهى فى ذلك واهمة مغرقة ، لأن أئمة الشيعة المخلصين من أمثال زيد بن على وجعفر الصادق لا يمكن أن يرتقى الشك إلى أقوالهم ، وإذا وجد فى الشيعة مغالون مغرضون ، فلن يذهبوا بفضائل الأئمة المخلصين . وقد جرت سنة الله أن يوجد الباطل مع الحق فى كل شىء ، وفى رجال الدين من شيعة وسنيين .. وقد آن لنا فى مجال البحث العلمى أن ننصف إخواننا فى الإسلام دون أن نأخذ البرىء بإثم

(١) « المعراج » للقشيرى تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر من ٣٩ - ٤٢ .

الظالم ؟ ولعل الأزهر الشريف قد فطن إلى ذلك حين قرر دراسة فقه الشيعة بكلية الشريعة ؛ كى يلتقى المسلمون على نهج سواء !

لا جرم أن مشاهد القيامة فى القرآن ، قد صورت اليوم الآخر تصويرًا لا ينفد سحره ، ولكن القيام برحلة فى عالم الغيب مما أبرزه حديث المعراج لأول مرة فى الأدب العربى ، وقد استغله الخطباء والواعظون فى مواقف الترغيب ، والترهيب ، وليس هنا مجال القول فى ذلك ، ولكننا نبحث عن التأثير الفنى الخالص فى الأدب العربى أولاً ، ثم فى غيره من الآداب !

أما الأدب العربى فقد كان أبو العلاء أبا عذرة الرحلة الخيالية به إلى الجنة والنار فى « رسالة الغفران » حيث استهلها بزيارة للفردوس تصف شجره وأنهاره ، ولبنه وخمره وأوانيه التى شكلت على هيئة الطير السابحة من كراكى ومكاكى وطواويس ، فبعض فى الجارية ، وبعض على الشط ينبع من أفواهها شراب كأنه من الرقة سراب . فإذا قذفوا الأوانى فى الأنهار سمع لها أصوات بمثلها تبعث الأموات، ثم أخذ يتحدث عمن تخيلهم بالفردوس من الشعراء كزهير بن أبى سلمى ، وعبيد ابن الأبرص ، والهذلى ، والنابغين مناقشًا إياهم فيما ينقده من أدبهم المأثور ، ويمر به رف من أوز الجنة ، فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ، ومن شأن طير الجنة أن يتكلم ويناقش ويغنى ليسمعه لبيد والجعدى والأعشى ، ثم يقابل حسانًا فينقد بعض ما قاله ويتطرق فجأة بصاحبه إلى يوم الموقف فى يوم مقداره خمسون ألف سنة، وبه يطول الأمد ، ويشتد الظمأ فيستشفع برجل عليه نور يتلألأ هو حمزة ابن عبد المطلب فيرسل معه رسولاً إلى على بن أبى طالب ليخاطب النبى فى شأنه ، فيمر بأبى على الفارسى فى حلقة من الأدباء يناقشونه تخريجاته النحوية والصرفية إلى أن يصل إلى على فيسأله عن التوبة ، ثم يرد الحوض ويستشفع بفاطمة بنت محمد لتسترحم أباها ، فيشفع له ، ويعبر الصراط إلى الجنة فيحاور رضوان قبل دخوله ، ثم يلج إلى نعيم الفردوس ليقابل حميد بن ثور ، ولبيدًا، ويقيم

لها ولزملائها من الشعراء مأدبة حافلة بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، فيجتمع خلق كثير فتوضع الخون من الذهب والفواثير من اللجين ، فإذا قضوا الأرب من الطعام دار الشراب والغناء وتحدث الأدباء ! ويعبر طاووس من طواويس الجنة يرون مرآه حسنًا فيشتهيه أبو عبيدة مصوصًا ، فيتكون كذلك فى صفحة من الذهب فإذا قضى منه الوطر انضمت عظامه إلى بعض ثم يعود طاووسًا كما بدأ ، ويمر ملك كريم فيعطيه ثمرة من شجر الحور رمانة أو تفاحة أو ما شاء الله من الثمار ، فيكسرها فتخرج منها حورية عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان وتقول له : إنى أتمنى لقاءك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة ، ويبدو له أن يطلع إلى أهل النار ، فيركب بعض دواب الجنة ، فيرى فى الطريق جنة العفاريت المؤمنين بمحمد المذكورين فى سورة الأحقاف، فيسمع أشعار الجن ويشهد صرع فتاة تصور لها الجن فى صورة فأر ، ثم فى صورة صل ، ثم فى صورة ريح ويتساءل عن لغة الجن وحديث الرجم . ويرى بعض آساد الجنة ويحادث الحطيئة وقد جلس فى أهون منازل الجنة . فإذا وصل إلى أقصى مكان بها وجد الخنساء تجلس هكذا لترى أخاها صخرًا يعذب فى جهنم ، فإذا أطاف بالنار رأى إبليس يضطرب فى الأغلال والسلاسل ، ومقاطع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية ، ثم يصطنع على لسانه فكاهة سمجة ما كان أحرى أبا العلاء باجتنابها فى مثل هذا الموقف ، ويرى بشار بن برد فى أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم ، فتفتحها الزبانية بكلاليب من نار ، فيحادثه مع زملائه المعذبين من أمثال امرئ القيس ، وعنترة ، وعلقمة ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة ، وأبى كبير ، والأخطل وإبليس يسمع ذلك الخطاب كله فيقول للزبانية : « ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك ، ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ، فلو أن فيكم صاحب نحيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر ، فيقولون : ليس لنا على أهل الجنة من سبيل . ثم يقابل المهلهل ، والشنقرى ، وتأبط شرًّا ، وبعد الرحلة الجهنمية يقفل إلى فردوس يحاور آدم وذات الصفا ، ثم

يضرب فى غيطان الجنة ليقابل حوريته التى انشقت عنها الثمرة ويتكئ على مفرش من السندس ، ويأمر الحور العين أن يحملنه فيضعنه على سرير ذهبى فى الجنة فيحمل إلى محله ، وكلما مر بشجرة نضحته أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور»!

رحلة رائعة التصوير محلقة فى القمة من عالم الفن ، ولو رسمنا مشاهدها فى لوحات فنية كما رسمت مشاهد الكوميديا الإلهية لأمكن أن تقارن بها . وأذكر أن فريقًا من أساتذة الأدب المقارن قد تلاحوا بصدد تأثير أبى العلاء فى دانتى ، فمن مثبت هذا التأثير متعلل بما عرف من اتصال الشرق والغرب أثناء الحروب الصليبية، وبعدها عن طريق مصر والشام وصقلية والأندلس ! فلابد أن تكون رائعة أبى العلاء مما ترجم وقدم إلى دانتى فهضمه . وتلك قضية يتعذر فيها وجه لحق ، وبخاصة إذا علم أن دانتى لا يمكن أن يصبر على قراءة قصة عسيرة الفهم لدى غير متخصص فى علوم العربية ؛ إذ إن « رسالة الغفران » تضم من النقاش النحوى والصرفى واللغوى ما يخفف كثيرًا من رونقها .

بل ما يجعل تقديمه فى ترجمة أجنبية نوعًا من الألغاز الغامضة . والذين قد تلاحوا بصدد تأثر دانتى بأبى العلاء كان عليهم أن يتجهوا إلى حديث المعراج مباشرة ، وهو المصدر الأول لأبى العلاء باتفاق ، أما كونه المصدر الأول أو أحد المصادر المهمة لدانتى فهذا ما سيتضح لنا عن قريب .

لقد بدأ (دانتى) جحيمه ذاكرًا أنه كان يضرب على غير هدى فى تيه لا أول له ولا آخر ؛ إذ يضل فى غابة مظلمة تعج بالأفاعى والوحوش ، وقد أنقذه (فرجيل) من أحد الكواسر بعد أن كاد يمزقه . وقد دلفا معًا إلى الجحيم ، فسمع دانتى أنين المعذبين فسأل عنهم فرجيل فأجابه أنهم الذين قضوا حياتهم فى لهو لا يعبأون بأوامر الله ! ثم رأى الجبار (خارون) منتصبًا كالوحش فى زورق ينقل أرواح الأشقياء من عدوة إلى عدوة ، فدارت الأرض برأس الشاعر من هول مشهده ثم دوى رعد

قاصف أنقذه من غيبوبته ، فانطلق مع صاحبه إلى دركات الجحيم . دركًا وراء درك ليرى بعض القوم تعصف به ريح السموم ، وتنشره كما ينثر الريش فى يوم عاصف ، ويرى أصحاب المطامع المنكرة تنصب فوقهم شآبيب من برد وثلج ، ويمزق أجسادهم الكلب (سيرسيروس) بأنيابه الحداد ، ثم يعبر دركًا آخر ليرى نهرًا من الدم تسبح فيه أرواح الذين آذوا جيرانهم بالافتراءات ، ثم يرى فى درك آخر عصبة من المزورين المختلسين يسبحون فى حديد يغلى بالقار ، وحراسهم زبانية قباح الوجوه . أما المنافقون فيرتدون عباءات من نار وطراطير من جمر . وقد فجر دانتى فجورًا خسيسًا سافلاً حين أعماه التعصب فجعل نبى الإسلام - أكرم خلق الله وأشرفهم على الإطلاق - بين أهل النفاق من المعذبين ! وذلك ما ينتظر من كاثوليكى متعصب ظل يأسف على انقضاء الحروب الصليبية دون أن تستأصل المسلمين .. ثم يشهد زمهريرًا من ثلج وبرد وماء يلف الآثمين فى قرار الدرك التاسع، وحينئذ ينتهى الجحيم ويصل إلى المطهر فيهب عليه أول أنفاس الفجر المرطب بالندى ويرى النجوم تتألق فى بنفسج السماء ، ولجة ترغى وتزبد حول جزيرة نائية ينهض فوقها جبل شامخ رفيع الذرى [1] ، ثم ينظر (دانتى) فبلا يرى إلا خياله حين تشرق الشمس منبطحًا على السفح من ورائه ، فينزعج ويحسب أن (فرجيل) غادره ورحل ، ولكن فرجيل يطمئنه ويخبره أن أرواح الموتى أضواء شفافة لا ظلال لها ، كما يكون لأهل الدار الفانية ، ثم ينطلقان ليقابلا عشرات الناس من أعلام الأدب والسياسة ، والحب والدين فى أوروبا ، وحولهما ضجيج الأرواح الهائمة ، تلغط جميعًا بهراء من الحسد والأحقاد القديمة ، إلى أن يصلا إلى شجرة باسقة ذات طلع نضيد ، وفاكهة حلوة يفوح عبيرها ، وفى أوراقها أرواح تذكر الله وتسبح بحمده ، وتشكر له ما رزقها من عفة . والناقدون يرون سدرة المنتهى فى المعراج هى التى ألهمت دانتى صورة هذه الشجرة وترى الأرواح الهائمة

(١) من ترجمة الأستاذ د. خ. من مجلة الرسالة أعداد يوليو ، وأغسطس سنة ٣٦ .

فى النار ظل دانتى على اللهب فتدهش لوجود حَيٍّ من الدار الفانية فى هذا المكان . ثم يلتقى الشاعر بحبيبته (بياتريس) فتكشف له عن شئون غيبية كثيرة ، ويظلان يتحدثان عن نهر يونو ، فإذا انتهى من المطهر سما إلى الفردوس ، فاحتسى جرعة نزعت ما فى نفسه من أدران الدنيا ، وجعلت جسمه هلامًا شفافًا وهيولى نقية ، كى يرقى فى السماء دون عائق ، ومضى فى رحلة سماوية إلى كواكب عطارد والزهر والمريخ والمشترى ليحدث من أدخلهم الجنة من ذوى محبته مثل : (جوستنبان) إمبراطور روما ، (وشارل مارتل) قائد النصرانية فى معركة بلاط الشهداء ، وطائفة من أرواح شهداء النصرانية فى الحروب الصليبية ، يمرحون فى أفياء الجنات الوارفة التى يهتز عنها المريخ ، ومثل (بندكت ، وداميانو ، وبطرس ، ويوحنا) من كبار القديسين . ثم يرى السيد المسيح وفى أثره مريم البتول ثم يدخلان سماء المنتهى – بهذا التعبير القرآنى – ذات الضوء الوهاج ، فيقف قليلاً ثم يفيق من رؤياه . وتنتهى الرواية .

تلك هى الخطوط الواضحة فى كوميديا الشاعر ، وأثر حديث المعراج بها أوضح من أن بدل عليه ، فهو يتجلى فى تكوين الهيكل العام للكوميديا من رؤية المعذبين والسؤال عن جرائمهم ، ومن أدوات التعذيب وزبانيته ، ومن بحار الدم والصديد . ومن سرد طائفة من مقابح وما أعد لها من العقاب . ومن غير ذلك مما يستشفه القارئ من خلاصتنا المركزة التى أوجزنا بها خطوط الكوميديا الإلهية ، وقد قامت معركة حامية بين المستشرقين ما بين منكرين لتأثير حديث المعراج ، ومثبتين له حتى عثر على مخططات قديمة لحديث المعراج ترجمت قديمًا إلى اللاتينية قبل زمان الشاعر ؛ مما يثبت إلمامه بها فى لغته ووطنه ، ولهذا الكشف الأدبى الجليل قصة طريفة لا مناص من الإشارة إليها بإيجاز :

لقد عاش (دانتى) فيما بين القرنين : الثالث عشر والرابع عشر ، ورحل عن الحياة متمتعًا بصيت أدبى رنان ؛ إذ اعتبرت ملحمته الإلهية أنضج ثمار الأدب

الإيطالى فى جميع عصوره وظلت موضع المباهاة لدى قومه ، فكانوا يقابلون بالاستنكار والتهكم أحيانًا - من يسعى لإيجاد مقارنة بينها وبين النصوص العربية أو اليونانية ، ويرون ذلك محاولة للنيل من شاعر مبتدع جل أن يقرن إلى نظير ، ولكن عشاق المعرفة فى كل مكان لا يبالون بإشباع الغرور القومى لدى بعض الطليان ، فهبوا فى القرن الماضى يعقدون الدراسات المختلفة بين المتشابهات من أمثال ملحمة (فرجيل) وحديث المعراج ، ورسالة أبى العلاء . وتتوالى الردود عليهم من المعارضين دون أن يتقدم البحث خطوة إلى الأمام ، حتى جاء المستشرق الأسبانى العظيم الأستاذ (آسين بلاثيوس) ، سليل أبناء الأندلس الذين أشرقت بحضارتهم الإسلامية أوروبا فى عصور الظلمات ، فأخذ على عاتقه أن يترهب رهبنة متصوفة فى البحث عن تأثير أجداده العرب من الأندلسيين فى آداب العالم وثقافته ، ووصل فى بحثه إلى نتائج مدهشة تثبت تأثير بثولوحية ابن رشد فى سان اكوينتس ، وابن عربى فى ريموندلال ، وإخوان الصفا فى فرانس انسلموا ، وجاءت خاتمة أبحاثه تعبن تأثير القصيدة الإسلامية فى كوميديا دانتى . إذ ساعدته دراساته العربية العريقة أن يتبع أكثر خواطر الشاعر معقبًا عليها بنظائرها فى القرآن والحديث وقصة المعراج ، وبعض آثار (ابن عربى) المتصوف الأندلسى ، وكان ما قدمه (بلاثيوس) من النصوص الإسلامية مذهلاً للكثيرين ممن كانوا يؤمنون بأفكار دانتى وطرافة خلقه الفنى. ولكن مجال الأفكار بعد ذلك لا يزال متسعًا ؛ إذ إن هناك سؤالاً لا يجد الجواب الشافى وهو : كيف تطرقت المعارف الإسلامية إلى الشاعر الإيطالى الكبير ؟ ولو كان الجدل المقارن وحده مجال الترجيح لا نحسم النزاع ؛ لأن تحليلات (آسين بلاثيوس) كانت من القوة بحيث لا يتطرق إليها اللبس ، ولكن المتمسكين بالعثور على وثيقة تثبت إلمام دانتى بالثقافة الإسلامية يرفضون كل جدل منطقى مقنع ويودون ما يلمس باليد لا ما يدرك بالعقل ، ولم يستطع البحاثة الكبير (بلاثيوس)

أن يجد هذه الوثيقة فمات بحاجة لم يقضها ، كما مات الفراء وفى نفسه شىء من حتى ..

ولكن الحق لم يعدم أنصاره ؛ إذ اجتهد بعده المستشرق الإيطالى الأستاذ (مونيرى دى فيبار) فى تتبع هذه المسألة حتى عثر على ترجمتين غربيتين مخطوطتين لقصة المعراج ، كما رواها أهل الحديث النبوى ما كتبت أولاهما بالفرنسية وحفظت بمكتبة اكسفورد وكتبت الأخرى باللغة اللاتينية وحفظت بالمكتبة الأهلية بباريس ، وجاء بعده الأستاذ الإيطالى (تشيرولى) ودرس المخطوطين فأكد وجهة نظر الأستاذ (مونيرى) ، ومن قبله (بلاثيوس) وسارع بنشرهما مضيفًا إليهما ما تتطلبان من الحواشى والتفسيرات لتوضيح مسألة التأثير وبتوالى البحث ، ظهر أن كلتا المخطوطتين ترجمت عن القشتالية من العربية إذ قام بترجمة القصة إلى القشتالية طبيب يهودى كان ببلاط الملك (الفونسو) بأشبيلية سنة ١٢٦٣ م يدعى : (إبراهيم الفقيم) ثم نقلها فى أثره إلى اللاتينية والفرنسية معًا الكاتب الإيطالى (بونافنتورا) الذى كان سكرتير (الفونسو) (١٢٢١ - ١٢٧٤ م) .

لقد وقعت فى أيدينا الوثيقة المطلوبة إذًا ، ولو عثر عليها (بلاثيوس) لعد نفسه أسعد باحث خدم قضية غامضة ، فسلط عليها من الأشعة ما يجلو الغموض ، ولكن الذين تم على أيديهم اقتطاف الثمرة يعترفون بالجميل لمن غرس البذرة وعمل على إروائها وتنميتها بعد أن مهد الأرض وقواها بالحراثة والتسميد .. وبهذا أصبح مؤكدًا لدى العلماء أن (دانتى) وقد انتشرت هذه النصوص قبل ميلاده قد اقتبس فكرة كوميدياه من المعراج وتأثر به فى نظمه وتفكيره وخياله أوضح تأثر .

يقول المستشرق الإيطالى الكبير الأستاذ (امبرتو ريزتيانو) الأستاذ بجامعة القاهرة من بحث نشرته مجلة الرسالة بافتتاحية العدد (٩٤٠) ما نصه :

« هذا .. وقد يتساءل الباحث عما إذا كانت ترجمة من هذه التراجم الثلاث كانت معروفة فى إيطاليا أثناء القرون الوسطى ، والإجابة فى هذه المرة لابد أن تكون

بالإيجاب ؛ إذ ورد ذكر هذا الكتاب الخاص بقصة المعراج فى كتابين من مؤلفات كاتبين إيطاليين عاش أحدهما فى منتصف القرن الرابع عشر ، وعاش الآخر فى أواخر القرن الخامس عشر ، وليس هذا إلا دليلاً على انتشار المعلومات عن العقائد الإسلامية وفلسفة العرب فى بلاد أوروبا ، ولا سيما إيطاليا فى القرون الوسطى ، وهذا ولم يقتصر المستشرق (تشيرولى) على نشر الترجمتين الفرنسية واللاتينية وعلى ملخص الترجمة القشتالية فحسب ، بل أضاف قسمًا ثالثًا جمع فيه كل الشواهد التى تثبت هذا الانتشار وعلى رأسها : حوار جرى بين محمد ﷺ وعبد الله بن سلام ، ترجمه إلى اللاتينية (أرمانوالد عاطى) سنة ١١٤١ نقلاً عن الكتاب المعروف «رد الكلام فى مسائل عبد الله بن سلام » ، وقد يتساءل الإنسان كذلك عن قيمة البحث الذى قام به (تشيرولى) ، والإجابة عن ذلك أنه نجح كل النجاح فى إيضاح المسألة التى أثارها (بلاثيوس) كما نجح فى وضع هذه المسألة على أساس أمتن من الأساس الذى وضعها عليه المستشرق الأسبانى » .

وأظن أن المتتبع لأدوار هذه القضية بإنصاف وحيدة لا يسعه إلا القول بتأثير حديث المعراج فى أروع تحفة يفتخر بها الإيطاليون ، ويقيمون (لدانتى) كل عام مهرجانًا تذكاريًّا لإبداعها ، ويرصدون الجوائز الأدبية باسمه من أجلها وكأنه بها فى رأيهم أعظم أديب عرفه التاريخ .

أما أثر المعراج فى الأدب الفارسى ، فما أوضحه وأقواه فيما نعرفه من أشعار المتصوفة بفارس . وهم مسلمون قد درسوا عقائد شريعتهم وألموا بحياة نبيهم ، ثم جذبتهم قصة المعراج إلى رحلات خيالية بديعة قاموا بها على جناح الشوق إلى آفاقهم الروحية ، ومن أشهرهم فى ذلك شيخهم الشاعر الأكبر (سنائى) صاحب كتاب الحديقة ، ومثنويات كنوز الرموز ، وحديقة الحدائق ، وسير العباد إلى المعاد وغيرها، وقد اتصل فى صدر حياته بملوك غزنه ، إلا أنه تزهد وتصوف وحج على قدم التجريد . وهنا تدفق الطوفان الإبداعى على لسانه شعرًا تردد على ألسنة

معاصريه ، وتتلمذ عليه من سلك سبيله من بعده ، أما معراج (سنائى) فقد نشره فى كتابه (سير العباد إلى المعاد) ليشرح رجوع النفس من عالمها المظلم الذى سقطت فيه إلى أصلها الإلهى ومقرها الأخير . فى رحلة تصور مقامات المتصوفة وأحوالهم تصويرًا، يدركه المتخصصون ممن تشربوا مصطلحات القوم وعرفوا خفايا رموزهم ودقائق ألطافهم ، وإذا كان (سنائى) قد سبق (دانتى) فى الزمن ، فإن المستشرق الأستاذ (نيكلسون) قد عقد بينهما مقارنات تدل على استقاء الشاعر الإيطالى [1] من معين الفكر الإسلامى ، وإذا كان اطلاع دانتى على روائع سنائى لا يزال افتراضًا، فإن اطلاعه على حديث المعراج النبوى قد انتقل من ضباب الافتراض المحتمل إلى ضياء اليقين الجازم ، وقد تأتى الأيام المقبلة بالجديد من تأثير سنائى إذا اطرد البحث على وجهه النزيه ..

أما متصوفة الأدب العربى ، فقد جذبتهم قصة المعراج بصورها العلوية ، وأنوارها السماوية دون شك ، وأوضح من تأثر بها إمامان كبيران هما : (محيى الدين ابن عربى) الأندلسى ، (وأبو يزيد البسطامى) ، فالأول فى الفتوحات المكية قد ذكر عن العرش والسدرة وأنوار ذى الجلالة ما يجد أصله فى الصحيح من حديث المعراج والموضوع معًا ، والطريف أن الأستاذ (نيكلسون) يجعل (دانتى) متأثرًا أيضًا بابن عربى فى ذلك ، ويفيض فى مقارنات طريفة ليس هنا مجال تفصيلها ، وقد أشار إليها الدكتور (مبارك) فى الجزء الأول من التصوف الإسلامى ص ٢٠٧ نقلاً عن غيره، أما (أبو يزيد البسطامى)، فقد نشر الدكتور (على حسن عبد القادر) نص معراجه ملحقًا بكتاب القشيرى ص ١٢٩ ، وهى رحلة روحية بديعة تجسم المعنويات فى صور حية تنطق بالبراعة والإبداع . ويقول فى مطلعه :

« إنى رأيت فى المنام كأنى عرجت إلى السموات قاصدًا إلى الله ، على أن أقيم معه إلى الأبد ، فامتحنت بامتحان لا تقوم له السموات والأرض ومن فيهما ؛

(١) كتاب « المعراج » ، ص ١٣.

إذ بسط لى بساط العطايا نوعًا بعد نوع ، وعرض على ملك كل سماء ، ففى ذلك كنت أغض بصرى عنها ، لما علمت أنه بها يجربنى فكنت لا ألتفت إليها إجلالاً لحرمة ربى ، وكنت أقول فى كل ذلك ، يا عزيزى ، مرادى غير ما تعرض على » .

ثم مضى (أبو يزيد) يذكر ما رآه فى السماء الدنيا من طير أخضر نشر جناحًا من أجنحته فحملته إلى صفوف ملائكة يضعون أقدامهم بالنجوم فتساءلوا عن بشر يصعد إلى مقر الأملاك ، فألهم كلمات قالها ، ثم صعد إلى السماء الثانية فرأى فوجًا من الملائكة يستقبلونه استقبال مدينة لأميرها ، وتقدم إلى روضة خضرة تحوى نهرًا وحوله ملائكة يطيرون إلى الأرض كل يوم مائة ألف مرة ، وعلى حافتيه أشجار من نور ولها أغصان كثيرة متدلية فى الهواء وفى كل غصن وكر طير وفى كل وكر ملك ساجد . فترك ذلك إلى سماوات أخرى فإذا جميع الملائكة يسلمون عليه ، وإذا ملك منهم له أربعة أوجه : وجه يلى السماء ، ووجه يلى الأرض ، ووجه يلى الملائكة ، ووجه يبعث بجنوده يسبحون الله فى كل مكان ، ثم نشر جناحًا من أجنحته فإذا على كل ريشة من ريشه قنديل يظلم ضياء الشمس فى ضوئه وقد أغواه الملك بأشياء ترفع عنها ؛ إذ إن مراده الأسمى يجل عن الإغراء ، ثم ارتقى فجلس على كرسى فوق شاطئ بحر عجاج لا أول له ولا نهاية ، فألهم التسبيح مشغولاً بذكر الله عن كل شىء . فإذا ملائكة قيام فى السماء ، رءوسهم فى أجوازها العالية يقطر منهم نور تبرق له السموات ويسبحون الله بكل لغة ، فرد عليهم بلغاتهم جميعًا . وما زال يرتقى ويطير ويجول مملكة بعد مملكة ، وبحرًا بعد بحر ، حتى انتهى إلى الكرسى ، فاستقبلته ملائكة لهم عيون عدد نجوم السموات يبرق من كل عين نور تلمع منه ، فتصير تلك الأنوار قناديل حيث يسمع من جوف كل قنديل تسبيح وتهليل ، ثم لم يزل يطير حتى انتهى إلى بحر من نور يظلم ضياء الشمس فى أشعته ، وعلى البحر سفن نورانية أخذ يعبر عليها سفينة سفينته حتى رأى حملة العرش من الكروبين قال

(أبو يزيد) : « فلما علم سبحانه وتعالى منى صدق الإرادة فى القصد نادانى إليه ، ثم سقانى شربة من عين اللطف بكأس الأنس ... ثم قابل روح محمد فسلم عليه وأوصاه .. » .

تلك خيوط من معراج (البسطامى) ، وقد قيل عنه إن (أبا يزيد) يذكر ما يذكر على لسان الحال لا الوقوع ؛ ليقرب إلى الوجدان بعض أحاسيسه . ولا نملك الحكم هنا على أحوال القوم ، إنما نثبت قضية التأثير كما اتضحت معالمها لدى الصوفى الكبير .

إن حديثًا نبويًّا - كحديث المعراج - يترك دويه فى الآداب العربية والفارسية والأوروبية وغيرها ، لجدير أن نفسح له أطيب مكان ، فى رسالة تتحدث عن أدب محمد بن عبد الله !

* * *